تصدير

عرفت نظرية النقد المعاصر في تاريخ الثقافة الفرنسية اتجاهات جديدة في ستينيات القرن الماضي فهي من جهة حاولت الالتحام بالعلوم الإنسانية، وتطبيق مناهج هذه العلوم من جهة أخرى.

فقد اندفعت مع محاولات لوسيان جولدمان نحو علم الاجتماع والبنيوية الدينامية. ومع جان لكان مضت نحو المعنى السيكولوجي، ومع جهود رولان بارت اتجهت نحو علم الأدب.

ومن العوامل الأساسية التي ساهمت في نشر هذه الاتجاهات الجديدة في الأوساط الجامعية والثقافية تعدد المناهج الجديدة التي تعالج النصوص الأدبية ذلك مثل منهج التحليل الجدلي الذي ينهض على أساس البحث عن البنيات الأدبية الدالة.

ومن أبرز خصائص هذا الاتجاه هو الاستناد إلى البحث التجريبي الذي يجنب الباحث الوقوع في حبال الأفكار والاتجاهات المسبقة. وهذا الاتجاه جعله يحدد في البداية ظاهرة محددة نشأت من خلال أسلوب الملاحظة، ثم يحاول أن يفسرها في ضوء فرض أو عدة فروض عاملة، يحاول اختباره أو اختبارها.

هذا التطور في نظرية النقد وفي مناهجها هل صادف قبولا عند المستشرقين في فرنسا الذين يتخذوا من الأدب العربي موضوعاً لبحوثهم ؟ إجابة هذا السؤال تتطلب إلقاء بعض الضوء على بحوثهم وعلى مناهج هذه البحوث.

والشائع في أعمال هؤلاء الباحثين هو الاهتمام باللغة العربية والترجمة للأدب العربي القديم وإهمال الأدب المعاصر أو تناوله بطريقة عابرة.

لنتوقف على مثال بارز لأحد أعمالهم هو عمل أندريه ميكل المسمى "الأدب العربي" الذي ينطلق فيه من تتبع آثار الدين على الأدب منذ بداية الإسلام حتى العصر الحديث. وفي هذا التتبع ينطلق من فكرة أساسية مؤداها أن أغلب الآثار

الأدبية العربية قديمها وحديثها آثار تعالج قضايا دينية أو متفرعة عن الدين. وهذا الأخير في رأيه أدى إلى خلق قطاع عريض من إنتاج الأدب، وهو الذي حدد معظم الاتجاهات الفكرية كما حدد الأذواق الأدبية.

وترجع هذه النظرة التي يتبناها ميكل في دراساته إلى أستاذه "بلاشير" الذي تناول موضوع الأدب العربي من قبله واتجه نحو التعرف على مظاهر أثر العنصر الديني على اللغة والأدب في مرحلة ظهور الإسلام.

وقد سار "شارل بلا" على دربه ومنهجه فقد حاول دراسة اللغة والأدب العربيين في كتابه المسمى "اللغة والأدب العربي" حيث تناول فيه قضية الأدب العربي منذ ظهور الإسلام حتى بداية العصر الحديث معتمداً في ذلك على تتبع الجانب الديني خلال هذه المرحلة التاريخية. واستطاع أن يبرز مظاهر ذلك الدور في تطور اللغة بوجه عام وعلى الموضوعات الأدبية بوجه خاص.

فما هو منهج "شارل بلا" في هذه الدراسة ؟

هو منهج تأملي ثباتي.. فالباحث ينظر في بعض المراحل التاريخية ويستنتج منها بعض الآراء، أما نوع الوقائع التي ينظر إليها فذلك أمر يحدده اتجاهه ومذهبه العام. وهو في جوهره محاولة لتعيين أسباب تطور اللغة والأدب، ومعظمها أسباب ترجع إلى جانب واحد. فهو يغفل دور العوامل المختلفة ويبحث فيما هو عام في سائر الوقائع الأدبية ليسهل له الخروج بعدد من التعميمات.

وعلى هذا الأساس قسم دراسته على النحو التالي:

- مرحلة ظهور الإسلام. وكانت اللغة تعتمد على الشفاهية ولا وجود للكتابة. أما الأدب والشعر فقد كانا مزدهرين.
- بداية العصر العباسي. وفيه قويت دعائم اللغة الفصحى نتيجة احتكاك الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم.
- مرحلة سقوط العباسيين. وتدخل النفوذ الأجنبي وفيه واجهت اللغة العربية تهديداً بالتدهور.

- مرحلة حملة نابليون على مصر. ومسايرة البلدان العربية للركب الحضاري العالمي.

إن الباحث لم يبدأ بفرض يوجه دراسته، بل بدأ في هذه الدراسة بآراء واضحة لديه؛ بحيث إن تقسيمه للمراحل التاريخية وإعطاء جانب منها أولوية لتفسر تطور اللغة والأدب لم يكن من قبيل التجريب بل كان من قبيل التبرير. ومن هنا كان بحثه مليئا بالتعسف، والتعسف ميزة واضحة في دراسته، فاهتمامه بالتقسيم لتلك المراحل كان منصرفاً إلى ما تكشف عنه هذه المراحل.

فالأدب في المرحلة الأولى يتميز بسيادة الطابع الديني. واللغة كانت تتميز بالشاعرية. أما الفكر العربي فكان فكرًا فطريًا بقى صامدًا أمام كل محاولات التغيير.

لقد ألقى بعدة أفكار لا تأخذ شكل احتمالات أو فروض مستوحاة من الواقع الثقافي والاجتماعي، بل مستوحاة من أفكار وتأملات عابرة. وقد سلك نحو تحقيق أفكاره عن اللغة والأدب والفكر العربي سبيلاً أقرب ما يكون إلى دراسة التاريخ العام من زاوية ثباتية.

وإذا كان الأمر كذلك فقد استحالت النزعة الحديثة لدراسة تاريخ الأدب إلى نقيضها، إلى دعوة تقليدية تحليلية. فالتاريخ الأدبي لم يعد عملية تتضمن عدة عمليات بل أصبح مجموعة وقائع وأجزاء استاتيكية ومجموعة أفكار يفرضها الباحث على تاريخ الأدب فرضاً.

وإذا تساءلنا: من أين للباحث هذه الفلسفة ؟ كان لزاماً علينا أن نبحث لها عن تعليل اجتماعي وثقافي. أما عن الأول فهو ينتمي كأغلب المستشرقين الفرنسيين إلى فئة مغلقة على وجودها الشخصي وتمثل جزء من البيروقراطية الفرنسية، وأما عن الثانية فهو الرأي الشائع عن مدرسة الاستشراق التقليدي منذ أواخر القرن التاسع عشر عن تضخيم الجانب الشكلي وتجميد التاريخ.

ولم يزل في أيامنا هذه أساتذة في الجامعات الفرنسية يدرسون الأدب العربي على ضوء مفاهيم ومناهج تقليدية. فالاتجاهات النقدية والأدبية الحديثة يشاهدونها

مشاهدة عابرة. ويقفون منها موقف الإنكار وعدم الاعتراف بها ويبذلون الجهد من أجل البقاء مع الماضي الذي يفصلهم عن حركة الواقع؛ لهذا نراهم يحصرون جهودهم في الأدب القديم.

ولا يختلف الحال بالنسبة لدراسات مدام ندا طوميش التي تجريها على تاريخ الأدب الروائي المصري؛ حيث نراها تعلل تطور الشكل الروائي عن طريق تطور الشكل نفسه. من خلال هذه اللمحة العابرة لهذه الأعمال يتضح لنا إننا بصدد اتجاه تأملي ثباتي ينظر لتاريخ الأدب نظرة استاتيكية.

وعلى هذا الأساس نفهم أن هؤلاء الباحثين من أصحاب النزعة التقليدية في دراسة الأدب، لم يحققوا تقدما كيفيا لدراسة تاريخ الأدب، الذي جزؤوه إلى وحدات جامدة.

سمير حجازي

مراجع التصدير

(1) Pellat, C., langue et littérature Arabe, Paris, 1970.

(2) Miquel, A. La littérature Arabe, Paris, 1970.

Miquel, A. La Une contede mille et une nuit Paris, 1979.

(3) Tomich, n. L'histoire de la littérature Romanesque, en Egypt, Paris 1981.\

(4) Blachit, A., Histire de la littérature Arabe, Paris, 1950